

نظرية الحرب العادلة من منظور فلسفي ميخائيل والزر "أنموذجاً"

د. سالم حسين العادي

قسم الفلسفة - كلية الآداب - الزاوية

جامعة الزاوية

تمهيد:

نظرية الحرب العادلة هي ذلك الإطار الذي يتضمن مجموعة من القيم والضوابط والمعايير التي تحدد في مجموعها ما هو عادل وغير عادل بالنسبة للحرب سواء على مستوى شنّها ابتداءً أو على مستوى إدارة عملياتها بعد اندلاعها فعلاً، ورغم أن نظرية الحرب العادلة تبدو للوهلة الأولى وكأنها تنتمي إلى ميدان فقه القانون الدولي إلا إنها في حقيقة الأمر أكثر أُنتماءً إلى ميدان الفلسفة والفلسفة الأخلاقية تحديداً، بل أننا لا نتجاوز الحقيقة إذا قلنا أن أحكام القانون

الدولى ذاتها بافتقارها في غالب الأحوال إلى القوة التنفيذية التي تكفل تطبيقاتها بالقوة الجبرية - ما تزال إلى الآن وفي حالات كثيرة أقرب ما تكون إلى الأحكام الأخلاقية التي تحدد ما ينبغى أن يكون، وليس إلى القواعد القانونية الملزمة التي لا تكفى توجيه المخاطبين بأحكامها إلى ما ينبغى من وجهة النظر القانونية بل تتجاوز ذلك إلى إكراههم متى لزم الأمر على الامتثال لمضمون أحكامها⁽¹⁾.

وعليه فإنه من هذا المنظور تظل نظرية الحرب العادلة نظرية فلسفية في المقام الأول بقدر ماهي حقوقية⁽²⁾ حتى وأن كان من يشتغلون بالعلوم السياسية والقانون الدولي بوجه خاص يشاركون المشتغلين بالفلسفة في هذا الميدان من الاهتمام وهنا نقول أن المشتغلين بالعلوم السياسية والقانون الدولي حينما يركزون بحثهم فيما هو عادل أو غير عادل في مجال العلاقات الدولية يكونون في حقيقة الأمر قد تجاوزوا البحث السياسى والقانونى إلى البحث الفلسفى وأصبحوا في حدود اهتمامهم هذا منتمين إلى طائفة الفلاسفة لا إلى طائفة فقهاء السياسة والقانون وهو ما يؤكد من جديد طبيعة الانتماء الفلسفى لنظرية الحرب العادلة باعتبارها جزءاً من فلسفة الأخلاق العملية في مضمار معين هو مضمار العلاقات الدولية⁽³⁾.

أن فكرة الحرب العادلة متأصلة في مختلف التقاليد الأخلاقية العلمانية والدينية⁽⁴⁾، وأن تفسير الحرب من الزاوية الأخلاقية الموضوعية هو محاولة لتأسيس مجتمع مدنى وجماعة عالمية على أسس العدالة، وبذلك تجد المقاربة الأخلاقية للحرب مسوغها وفي الوقت نفسه مشروعية تحليلها للحرب التي لم يخل منها عصر ولا مجتمع فلقد رافقت واقعة الحرب تاريخ الوجود البشرى منذ ظهوره، وكانت الواقعة الأكثر تكراراً ودماراً، واعتبرت إما بمنزلة نشاط طبيعى للمجتمعات، أو وسيلة تلجأ إليها المجتمعات والدول للدفاع عن نفسها أو تحقيق مصالحها،

ومن ثمة لا يمكن ان تكون الحرب غاية في ذاتها لأنها لا تحمل مشروعيتها أو صلاحيتها في ذاتها، وإنما هي وسيلة من أجل إقرار الأمن والسلام ضمن هذا التوجيه، كيفت حلت الفلسفة مسألة الحرب العادلة عموماً؟ وبأى معنى يمكن الحديث عن حرب عادلة على وجه الخصوص؟ إذا كانت كل حرب بالتعريف وبالضرورة تؤدي إلى الموت والدمار أى إلى ما تعتبره الأخلاق شراً. هذا ما سنحاول الإجابة عليه من خلال منظور فلسفي يراعى المعطى التحليلي والنقدي لمسألة الحرب العادلة وذلك من خلال دراستها في مجال الفلسفة المعاصرة كنموذج عند (ميخائيل والزر _1935).

مبادي الحرب العادلة :

لقد ساهمت الفلسفة المسيحية في العصور الوسطى في تحليل الحرب من منطلق لاهوتي واخلاقي، فقد بينا القديس أوغسطين (345-430) وتوما الاكوينى (1224-1274) واصطلاحاً على تسميتها بالحرب العادلة كما ساهم فلاسفة عصر النهضة في تكوين نظرية الحرب العادلة أمثال " فرنسيسكو دى فيتوريا (1483-1546) " وهو غروسسيوس (1583-1645)⁽⁵⁾ في تشكيل مجمل الأفكار والمبادئ التي تكون نظرية الحرب العادلة الكلاسيكية فهذه النظرية تتكون من جزئين أساسيين مرتبطين بسؤالين هما: ما هي الحرب العادلة؟ إن كانت هنالك حرب يمكن وصفها بالعدل؟ وتعتبر نظرية (حق الحرب أو شرعية الحرب إجابة عن هذا السؤال، والسؤال الثانى يتعلق بكيفية إدارة الحرب، أى ما هي الطريقة أو الكيفية التي تجرى بها الحرب؟ والجواب على ذلك نجده في نظرية الحق في الحرب أو الوسائل المشروعة لإدارة الحرب، تشترط النظرية الأولى أو نظرية حق الحرب جملة من المبادئ التي يجب توافرها حتى يمكن الحكم على الحرب إن كانت عادلة أو غير عادلة وهذه المبادئ هي:

- 1- يجب أن يتم الإعلان عن الحرب من قبل هيئة شرعية⁽⁶⁾.
- 2- لا تعلن الحرب إلا من قبل سلطة عامة وإلا كانت جريمة وهذا المبدأ يعارض فكرة إعلان الحرب من قبل فرد أو شخص واحد أو بتعبير آخر منع القرار الفردي في شن الحرب.
- 3- تخاض الحرب من أجل قضية عادلة⁽⁷⁾، أى أن تكون الحرب من أجل قضية عادلة (يعتبر هذا المبدأ من أكثر المبادئ إثارة للجدل أو التأويل).
- 4- يجب أن تكون للحرب غاية أو مقصد عادل، كأن يكون تغليب الخير العام، وإلا يكون القصد من الحرب مقصداً سرياً، وإنما يجب أن يكون المقصد هو الانتصار للخير العام⁽⁸⁾.
- 5- ضرورة أن تكون الوسائل والأدوات المستعملة مناسبة مع الغايات، وأن يكون هنالك أمل معقول في الإنتصار وأن تعتبر الوسيلة الوحيدة.

أما مبادئ نظرية الحق في الحرب فتمثل الآتى:

- 1- التناسب، أى تحقيق الشرط الخامس من النظرية الأولى.
 - 2- ضرورة التمييز بين المحاربين وغير المحاربين، أى منع مهاجمة غير المحاربين والمدنيين.
 - 3- ضرورة استعمال القوة في حدودها الدنيا أو القوة الضرورية أى بمعنى لا يجب الإفراط في استعمال القوة عندما لا يقتضى الأمر ذلك⁽⁹⁾.
- و تعد نظرية الحرب العادلة من هذه الوجهة بمنزلة جهد أخلاقي⁽¹⁰⁾ وسياسى من بين جهود أخرى كثيرة تبذل بفرض إرساء سلام دائم، ذلك السلام الذى يتحدد بطريقة سلبية لأنه يدل

على غياب الحرب، ففي مقابل الحرب، هنالك تصور للسلام أو النزعة السلمية، الذي يربط بين الدولة والسلام، وبينه أمراً مفروضاً من قبل الأقوياء، على أن الفهم الحديث للسلام يحاول أن يجعل من السلام مجموعة من العلاقات القائمة بين الدول ذات السيادة والمتساوية في ما بينها، وهذا ما قرأه في مضمون فكرة السلام الدائم الذي كان أول من دعا إليها هو "بيار (1412-1490)" في القرن الرابع عشر الميلادي، وتبعه في هذا التوجه القديس "دي سان بيير (1737-1814)" في كتابه "مشروع للسلام الدائم في أوروبا" سنة 1713، الذي أقرح كونفيدرالية بين الدول الأوروبية مدعومة بمؤتمر دائم وأن كان روسو (1712-1779) كيف أنه انتقد هذه الفكرة وشكك في إمكانية نجاح هذا المشروع، ولكن كانط (1724-1804) في كتابه "مشروع للسلام الدائم" سنة 1795، نراه هو الذي انتقد عدم الاهتمام الكافي الذي نوليه بالوسائل السياسية والمؤسسية الدائمة في إقامة السلام، وحرر كتابه في إطار نوع من الاتفاقية، حيث أكد في المادة الأولى منه أن "الدستور المدني لكل دولة يجب أن يكون دستوراً جمهورياً" (11) وعنده تلقى فكرته القائلة إن "مصادقية السلام تقوم على حكومات ديمقراطية تجاوباً واهتماماً وتقديراً بين الباحثين والفلاسفة المعاصرين وهو ما بينه (هيرماس* 1929-) في كتابه "حول السلام عند كانط" (12).

نظرية الحرب العادلة من منظور فلسفي:

المطلب الأول: ميخائيل والزر* (- 1935) أنموذجاً:

يعتبر والزر من أهم منظري فلسفة الحرب العادلة والإرهاب في الفلسفة المعاصرة، حيث يعد كتابه (الحرب العادلة وغير العادلة: حجاج أخلاقي مع أمثلة تاريخية) just and unjust wars (A moral Argument with historical illustrations) من أهم الأعمال

الفلسفة المعاصرة في موضوع الحرب العادلة كما يتميز والزر بنظريته في العدالة وأنتمائه إلى التيار الجمهوري، فقد شكلت السياسة بالنسبة إلى والزر اهتمامه الأساسي فقد ارتبط في الستينات من القرن العشرين بالحركات السياسية المتصلة بالدفاع عن الحقوق المدنية ومناهضة الحرب على فيتنام، وفي تقديره فإن مواضيع النظرية السياسية يجب أن تكون نابعة من مشكلات الحياة اليومية وترتبط بالنشاط السياسي وفي هذا السياق فإن مساهماته السياسية أرتبطت بالأحداث السياسية والفكرية التي عرفتها أميركا، كالحرب على فيتنام، وأهمية النقاش الذي أثارته نظرية "جون روالز"^{**} في العدالة ومن هنا قدم مساهمة في الحرب وفي العدالة تقوم على التمييز بين أخلاق في حدودها العليا وأخلاق في حدودها الدنيا، فهذه الأخيرة تتميز بقدراتها على تجاوز الحدود الثقافية وبذلك تكون أخلاق عالمية، أما العدالة التوزيعية فتنتقل بالأخلاق في حدودها العليا لأنها تتصل بثقافة معينة في مجتمع معين ولا تقوم على القانون وإنما على الخيرات⁽¹³⁾، ومما لا شك فيه ان الحرب من حيث الموقف الاخلاقي المبدئي هي شر، لكن التفكير الاخلاقي لا يرى ذلك كافياً، لأن هذا الموقف في ما يرى ولزار يتصف بمفارقة ظاهرة، فهو في الوقت الذي يدين فيه الحرب باعتبارها شراً يطالب المحاربين بضرورة الالتزام ببعض القواعد والمبادئ الاخلاقية، من هنا يرى أن هذه المفارقة بين الموقف الاخلاقي والتفكير الاخلاقي لا تحل الا من خلال تحليل غاية ووسائل الحرب في الوقت نفسه.

وهنا ينتصر والزر إلى الرأي القائل أن ثمة مبادئ أخلاقية في ميدان الحرب، بل يذهب إلى أبعد من ذلك ليؤكد على قاعدة أخلاقية أساسية تعد بمنزلة تحد حقيقي للفكر الاخلاقي إلا وهي انه إذا تحققت الأخلاق في مجال الحرب فإنها تتحقق في جميع المجالات⁽¹⁴⁾.

وإن تلك المبادئ الأخلاقية لا بد أن تكون عالمية أضمن الأخلاق في حدودها الدنيا، وعليه لا يمكن أن تكون الحرب خارج التفكير الأخلاقي والمبادئ الأخلاقية.

وتقوم فلسفة والزر على معارضة الطرح السلمى والواقعى للحرب فبالنسبة للطرح الأول أى السلمى فهو في نظره ينكر الحرب باعتبارها جريمة، والطرح الثانى يرفع عن الحرب جوانبها الأخلاقية ليؤكد أن الحرب تكون في بعض الحالات عادلة ومشروعة، وأن كان سير أحداثها قد يطرح مشكلات أخلاقية لذلك عمل على تشكيل نظرة اخلاقية واقعية حول الحرب.

ولتحقيق ذلك فإن الفيلسوف والزر لم يدرس الحرب في عمومها إنما أجرى تحليلات لحروب محددة عن طريق ذكر أمثلة جديدة مثلما فعل عندما نشر كتابه السابق (الحرب العادلة وغير العادلة) في طبعته الفرنسية حيث أضاف وجهة نظره في حرب الخليج الثانية وهو هنا ينطلق من مجموعة من الاستفهامات أهمها:

- كيف يمكن لنا فهم الحقيقة الأخلاقية للحرب؟ وبالإعتماد على مقارنة الأعتداء كيف يمكن للجنود أن يحاربوا ما لم يكونوا على قناعة بأن حربهم عادلة؟
ثم كيف يمكن لنا أن نحكم على أخلاقية أولاً أخلاقية المعمارك؟ خاصة أن هنالك إخراجات عديدة تحكم الحرب منها عليك بالإننتصار والقتال العادل؟ حقيقة الموقف بين الإعتداء والحياد؟ وعلى من تقع المسؤولية في الحرب⁽¹⁵⁾.

للإجابة عن هذه الاستفهامات يقدم الفيلسوف جملة من الأطروحات منها:

- 1- ضرورة الإقرار بصعوبة وتعقد بعض القرارات الخاصة التي تعود إلى تركيبة العالم.
- 2- إذا كانت اللغة تعكس العالم الذى نعيش فيه، فإن القاموس الأخلاقى يعتبر من طبيعة مقبولة وثابتة وعامة ويمكننا من إصدار أحكام جماعية مشتركة.

3- إن الحياة الأخلاقية ليست حياة فردية بقدر ما هي حياة جماعية في جوهرها⁽¹⁶⁾. ولكن ما هي الطريقة التي أتبعها الفيلسوف لتحقيق هذه الأطروحات؟ نقول لقد أتبع الفيلسوف الطريقة التاريخية في عرض نماذج من حروب مختلفه دون أن يراعي فيها التسلسل التاريخي وبذلك يمكن لنا القول أن كتابه ليس كتاب في تاريخ الحروب وإنما يتخذ من تاريخ الحروب دليلاً لنظرية الحرب العادلة⁽¹⁷⁾ ونذكر من هذه الامثلة التي توقف عندها والزر حرب اثينا، والحرب العالمية الثانية، وحرب فيتنام، وحرب كوريا، وحرب الخليج الاولى والثانية، وغيرها كثير، وبعد تحليله لكل حرب منفردة خلص إلي جملة من المواقف الاساسية يمكن تلخيصها في رفضه للموقف الواقعي من الحرب، وذلك الموقف الذي يرى ان كل الوسائل مسموح بها في الحرب والذي يجسده في نظره القول المأثور "كل الوسائل في الحرب والحب مقبولة"⁽¹⁸⁾ كما اعترض على فكره اعتبار ان الحرب جريمه لانه يرى ان ذلك يتوقف على السياق الذي تتم فيه الحرب، وانتقد وصف الحرب بـ (الجسيم) بسبب وجود من يقبلون على الحرب بأختياراتهم كالمرتزقة والجنود المحترفين، واما القول بأن الحرب اعتداء، فان هذا يعني انها يجب ان تحتكم إلي العدالة وذلك ان الاعتداء لا يفهم الا من خلال الاقرار بوجود مجتمع عالمي يتكون من دول مستقلة وان هذا المجتمع تحكمه قوانين منها قانون السيادة والحفاظ على سلامة التراب الوطني، وان استعمال القوة ضد دولة أو التهديد بها يعد فعلاً إجرامياً وان كل اعتداء يؤدي إلي حرب مشروعة من قبل المعتدى عليه، لأنها حرب دفاع عن النفس، فالإعتداء هو الذى يسوغ الحرب وعندما يتم صد المعتدى يجب معاقبته.

وأيضاً حلل الفيلسوف إشكالات أخرى من الحرب كالحرب الانتقامية والحصار، والحرب الشعبية والإرهاب والحرب الوقائية، حيث أن هذه الأخيرة تحركها فكرة الخوف

والتهديد، إلا أنه لا يمكن الحديث عن مشروعية الحرب الوقائية إلا عندما تكون هنالك نية أو مقصد ظاهر في الإعتداء ودرجة عالية من الاستعداد وسياق من الضغط⁽¹⁹⁾.

وعالج ما اعتبره بمنزلة الأحرجات الأخلاقية للحرب، والمقصود بذلك القياس المنطقي الذي يضع الخصم امام خيارين في غير مصلحته، ومن بين أشكال الأحرار التي توقف عندها الفيلسوف إحرار (ضرورة الأنتصار والقتال العادل) ذلك أنه إذا كانت الحرب تتطلب الإنتصار فإن القتال بشكل عادل ليس أمراً سهلاً، كما أن حرب عادلة تفترض أنه ليس من العدل، مثلاً ضرب جندي جريح، مع انه من الممكن أن تتدخل فكرة أخرى وهي "الضرورة العسكرية" من هنا تكون القواعد الأخلاقية في الحرب لا تتمتع بالقوة الكافية، إلا أنه في نظر الفيلسوف يجب العمل دائماً وفقاً للقاعدة القائلة " كلما كانت الحرب عادلة كانت قانونية ومشروعة"⁽²⁰⁾

وهنالك إحرار آخر يتمثل في الإعتداء والحياد، إذ كيف يمكن للإعتداء على دولة معينة أن يجعل من دولة أخرى محايدة، إن هذا الحياد في نظر ولزار يعتبر مشاركة جماعية وإرادية في النزاع وإحرار ثالث يتمثل في ما يسميه بـ " الحالة الاستعجالية القصوى"^{*}

ومضمونها أن الحرب قد تحتم عدم التمييز بين المحاربين وغير المحاربين وهو ما اضطرت بريطانيا إلى القيام به في بداية الحرب العالمية الثانية عندما أمرت طيرانها الحربي بقصف المدن الألمانية.

وهنالك إحرار رابع يتعلق بالردع النووي المتمثل في انه في ظل تهديد غير أخلاقي يجب التقدم برد غير أخلاقي، والأحرار الأخير متعلق بـ " المسؤولية في الحرب " فعلى من تقع المسؤولية في الحرب؟.

هنا يرى ولزار أن المسؤولية القانونية تقع على القيادة السياسية لأنها هي المسؤولة عن تحريك آلة الحرب، وأما من هم دونهم، فتقع عليهم المسؤولية الأخلاقية أى يعتبرون مدانين أخلاقياً، ولزار يذهب إلى أبعد من هذا، إذ يعتبر المواطنين كذلك مسؤولين وذلك بحسب موقفهم من مساندة أو عدم مساندة الحرب وموقفهم من ارتكاب الجيش للجرائم⁽²¹⁾. بل أننا نجد الفيلسوف يذهب مذهباً فلسفياً ميتافيزيقياً حيث أنه يقر بالخطيئة الميتافيزيقية ويقول في هذا السياق " خلف المسؤولية الجماعية توجد الخطيئة الميتافيزيقية التي تثبت فشلنا باعتبارنا كائنات إنسانية غير قادرة على العيش وفقاً لإمكاناتها وبروتيتها لكل ما هو خير، وفى تقديره أنه على الرغم من أن المسؤولية شخصية وخاصة لكن الحياة الأخلاقية حياة جماعية بالأساس والجوهر، وهو ما يؤكد أطروحته عن طبيعة الحياة الأخلاقية "

وبعد تقديم ولزار وتحليله لمجموعة من الحروب نراه يقول بضرورة إقرار جملة من الشروط التي تحدد الحرب العادلة وغير العادلة وهى الآتى ذكرها: -

1- قضية عادلة: أى بمعنى أن قرار الحرب يجب أن يستند إلى إدارة في تحقيق العدل وليس الانتقام استجابة لشر واقع.

2- الغاية العادلة: بمعنى يجب أن يكون الهدف من شن الحرب هدفاً عادلاً كحماية الأبرياء أو إقامة سلام عادل⁽²²⁾

3- الضرورة: بمعنى أستيفاء جميع الوسائل الدبلوماسية والسياسية والإقتصادية بحل النزاع وإعادة الحق والمحافظة على السلم والأمن الدوليين⁽²³⁾.

4- هيئة شرعية: أى أنه لا يجوز إعلان الحرب إلا من قبل هيئة وحكومة شرعية⁽²⁴⁾.

5- تحقيق الهدف: بمعنى انه لا يمكن شن الحرب إلا إذا كان الأمل والهدف المرسوم يمكن تحقيقه عسكرياً⁽²⁵⁾.

وبالإضافة إلى هذا فإنه وفقاً لنظرية الحرب العادلة فإن مجريات الحرب يجب أن تحتكم إلى الآتي:

1- التفرقة بين المحاربين وغير المحاربين، بمعنى أن الحرب العادلة لا تشن هجوماً مقصوداً ومباشراً على غير المحاربين.

2- نسبية الخسائر، بمعنى أن الدمار الذي تحدثه أو تلحقه الحرب يجب ألا يتجاوز المكاسب المتوقعة أو المرسومة، وأن إيجابيات الحرب يجب أن تفوق ثمنها أو كلفتها.

3- إن الحرب العادلة حرب محدودة، وأنها وفقاً لجملة من القواعد موجهة قدر الإمكان إلى الحد من استعمال العنف والإكراه تجاه السكان العزل⁽²⁶⁾ بمعنى أنه يجب أن تفرق الشعوب الجيدة التنظيم بعناية بين ثلاث مجموعات: زعماء وساسة الدولة الخارجة عن القانون، وجنود هذه الدولة، ثم سكانها من المدنيين⁽²⁷⁾.

من هنا نستطيع القول أن والزر يستخدم نفس المبادئ التي تقوم عليها نظرية الحرب العادلة كما ظهرت في العصور الوسطى، وأنه أضاف نوعية الحروب الجديدة، وما يسميه بالإجراجات الأخلاقية مع التركيز على الجانبين السياسى والأخلاقى للنظرية.

على أن المشكلة التي تطرحها تلك القواعد المشكلة النظرية كون تطبيقها ليس مضمون دائماً، فليس هنالك سلطة رقابية تسهر على تطبيقها، ولذلك فإن قواعدها تنقصها الفعالية الكافية لكن على الرغم من عدم قدرتها الكافية على الحد من الظلم والتجاوز فإنها تمكننا من تحديد السلوك الواجب إتباعه في الحرب، كما أنها تمكننا من الحكم على نوعية أو طبيعة الحرب

الجارية في نظر الفيلسوف، من هنا وجب النظر إلى هذه النظرية على أنها غير مكتملة وأنها قابلة للتعديل، خاصة إن الفيلسوف قد أتخذ وجهة نظر تجريبية ما دام يحاول دائماً إخضاع أفكاره للوقائع الجديدة، وبهذا يختلف تحليل والزر عن تحليل غيره من المفكرين إمثال **سيجموند فرويد** (1856-1939) ⁽²⁸⁾ في كتابه "قلق الحضارة" لأنه لا يهدف إلى تقييم شامل للحرب وإنما إلى تحليل حروب محدودة بغية الوقوف عند مشروعيها الأخلاقية، كما نتصف محاولته بالتعديل والتجديد، مثلما يظهر ذلك في تحليله للحروب الجديدة.

والذى لا شك فيه أن نظرية الحرب العادلة لا تعتبر كما يري والزر نظرية (اليدي النظيفة) لأنها نظرية على وعى بالشر، بل وتتضمن سلباً بالشرور، بما أنها تعتبر نفسها بمنزلة (أخلاق طواري قصوى) ⁽²⁹⁾.

فقد سبق وأن قلنا إن الحرب العادلة تنتمي إلى ما يسمى بالأخلاق في حدودها الدنيا مقارنة بالأخلاق في حدودها القصوى ومعنى ذلك أن المفاهيم والتصورات الاخلاقية تمتلك دلالات دنيا وقصوى أو بتعبير آخر، يمكن إعطاءها معنى محدود وظيفى أو معنى واسع وشامل، ولكل معنى من المعنيين سياقه الخاص ⁽³⁰⁾. وبالتالي لا تنفصل الأخلاق في حدودها الدنيا عن الأخلاق في حدودها القصوى، وإنما تتجسد الأخلاق الدنيا في تجربة ثقافية وأجتماعية وتاريخية معينة، وبهذا المعنى لا تعتبر الأخلاق في حدودها الدنيا أخلاق نسبية ولا تتعارض مع الأخلاق الملكية والعالمية، وإنما هي بمنزلة (نواة أخلاقية) يشكلها مختلف الثقافات بحسب سياقاتها وهو ما يسمح بالإضافة والتجديد والإبداع، ينطبق هذا على ما يعتبره الفيلسوف الخاصة التي لا يمكن تفاديها وهي ان جميع المجتمعات الإنسانية هي مجتمعات عالمية كونية باعتبارها إنسانية ولكنها في الوقت نفسه مجتمعات خاصة وفردية لأنها مجتمعات لها ثقافتها

الخاصة وتاريخها الخاص، والحرب العادلة تنتمي إلى العدل بهذا المعنى، أى أنها تجربة إنسانية كونية واجتماعية خاصة في الوقت نفسه.

ولاشك في أن هذا يطرح مسألة العلاقة بين العام والخاص والكوني والفردي، والكلية والشخصي في فلسفة ولزار، وهو موضوع أثار نقاشاً واسعاً بين مختلف التيارات الفلسفية، فهناك إنصار الكلية والكونية أمثال "راولز وهبيرماس" ⁽³¹⁾، وهناك أنصار ما يسمى بالكونية أو العالمية المنبثقة أي النابعة من ثقافة معينة وهو ما يدافع عنه والزر، وبذلك يختلف عن النسبية المطلقة مع أنه من أنصار التعددية ⁽³²⁾.

المطلب الثاني: حرب الخليج الأولى: نموذج للحرب العادلة:

في الطبعة الجديدة لكتاب " الحرب العادلة وغير العادلة 2006 " كتب والزر تمهيداً خصه لحرب الخليج الأولى وذلك حسب قناعته بأن النظرية السياسية يجب أن تكون قادرة على تفسير الوقائع الجديدة خاصة وأن نظرية الحرب العادلة قد عرفت اهتماماً واسعاً، حتى أن أصبحت لغة الحرب العادلة متداولة في معظم الخطابات السياسية والأخلاقية، فقد تم استعمالها من قبل الولايات المتحدة الاميركية سواء في غزو " بنما " وهو ما يعترض عليه الفيلسوف لأنه يعتبرها منافية لشروط الحرب العادلة ذلك أن هذه الحرب قد تحققت انتصاراً ولكنها بتخيلها عن المبادئ الإنسانية تبقي وجهة اللاخلاقية تطاردها أينما ارتحلت وحيثما حلت ⁽³³⁾.

كذلك أستعملت هذه اللغة في حرب الخليج الأولى وفي الحرب على الإرهاب، وهذا ما يجعل كما يقول "من نظرية الحرب العادلة تمر بلحظات خطيرة مع أن هذا ما يصبو إليه كل منظر" ⁽³⁴⁾.

أى لحظة التحول من الفكر إلى الواقع أو من النظرية إلى التطبيق، وهو التحول الذى يضع كل نظرية بما فيها هذه النظرية على المحك وموضع اختبار وامتحان وعملياً فإن فكرة الحرب العادلة كانت دائماً موضوع نقاش من قبل السياسيين والعسكريين، لأنه لا يمكن إرسال الجنود إلى ميدان الحرب، ولا يمكن أن يطلب منهم أن يخاطروا بحياتهم وأن يقاتلوا من دون أن يضمن لهم عدالة قضيتهم أى التبرير المبنى على العدالة، يرجع هنا بشأن العدالة إلى المعايير القانونية* كما تحددها الشرعية القانونية الدولية⁽³⁵⁾.

من هنا يرى الفيلسوف أنه لا يمكن رفض نظرية الحرب العادلة بحجة الإستعمال السئ، مثلما لا يجب أن نرفض فكرة الصداقة لأن هنالك أصدقاء مخادعين أو خائنين.

أن أهمية أي نظرية هي أنها تمنحنا القدرة على إجراء تمييز أساسى لمستويات الموضوع الذى نحاول تفسيره أو تحليله، وبناء عليه فما هو التحليل الذى تقدمه نظرية الحرب العادلة لحرب الخليج؟

أولاً: يجب الإقرار بأنه ليس هنالك حالة مثالية تكون فيها الحرب سهلة ويمكن أن نطبق عليها جميع المعايير بالنسبة للحرب العادلة، لكن بالعودة إلى جميع أحداث حرب الخليج من بداية غزو العراق للكويت إلى المقاومة الكويتية، وإلى الجهود الدبلوماسية وإقرار الحصار الاقتصادي من قبل الأمم المتحدة، ثم اللجوء إلى تحالف عسكري قادته الولايات المتحدة الأمريكية وكل الضغط الذى مورس من شهر 5-1990 إلى غاية شهر 1-1991، من اجل إقناع القيادة العراقية بسحب قواتها وخروجها من الأراضى الكويتية بالعودة إلى كل تلك الأحداث نجد أن جميع المحاولات قد باءت بالفشل وبالتالي وصلت الأمور إلى نقطة كانت فيها الحرب هي الطريقة المثلى، فقد تم إنذار القيادة العراقية منذ شهر 9-1990، ومع ذلك وكما

يقول الفيلسوف من جهتين، فإنني أعتبر أنه من الواجب الأخلاقي، أن يتم اختبار جميع
الأمكانات ويتم تقدير كل نتائجها المتوقعة⁽³⁶⁾.

وإذا كان أغلبية الملاحظين أنتظروا خروج الجيش العراقي من الكويت قبل الموعد
المحدد أي يوم 15-1-1991، فإن القيادة العراقية بأصرارها على موقفها قد جعلت الحرب
عادلة وشرعية من دون أدنى شك⁽³⁷⁾.

فقد قامت الأمم المتحدة بوصفها هيئة عالمية شرعية بتطبيق جميع اللوائح سواء المواد
الداعية إلى إحلال السلام، أو الموافقة على إعلان الحرب في حالة غياب السلام، وهو ما تشير
إليه المادتان 2، 7 من ميثاق الأمم المتحدة اللتان تسمحان لمجلس الأمن بأن يتدخل بوصفه
شرطياً يضع حداً للحروب ويفرض السلام، وهو ما حصل في غزو العراق للكويت يوم -
2.8.1990 حيث قرر مجلس الأمن في 17 - 1 - 1991 حق التدخل العسكري الذي استمر
إلى غاية 1991 - 3 - 2 ف حيث جاء في القرار (على العراق أن يمتثل امتثالاً تاماً للقرار
رقم 660 لسنة 1990 وجميع القرارات اللاحقة ذات الصلة)⁽³⁸⁾.

وبذلك أستعمل المجلس حق معاقبة الدولة المعتدية وقبل أن يصل المجلس إلى هذا
القرار سبق له وأن اتخذ عدة توجيهات وأقرارات منها القرار السابق الذكر (660) حيث طالب
المجلس بموجب هذا القرار خروج القوات العراقية وانسحابها التام وغير المشروط من
الأراضي الكويتية⁽³⁹⁾.

وتم إعتبار القوات العراقية قوات معتدية خرقت القانون الدولي، وبالتالي فإن خرق
القانون الدولي هو الذي أعطى الشرعية لإعلان الحرب وفي 29-11-1990 ووفقاً للقرار رقم
(678) الذي يسمح للدول المتعاونة مع الكويت أن تستعمل جميع الوسائل، إذا لم تطبق العراق

كل قرارات الأمم المتحدة مع حلول 15-1-1991، وبالطبع فإنه عندما يسمح مجلس الأمن للدول أن تستعمل جميع الوسائل فإن هذا يعنى الموافقة على أستعمال القوة كذلك، وهذا بهدف وضع حد نهائي للإعتداءات وخاصة الاعتداء على القانون الدولي وهذا ما حصل مع غزو الكويت، الا أن الغرب كان يرسم في سيناريوهاتة وهو مضطر لتجديد ربط خيوط التبعية اليه بعد تآكل الاستعمار القديم سواء دخل العراق الكويت أو لم يدخل وبالتالي فقد كان الغرب مستعدا للدخول في فترة مابعد الاستعمار لتحقيق سيناريو التمزق من جديد⁽⁴⁰⁾.

فقد استطاع بوش حشد أكبر تحالف عسكري في التاريخ لتحرير الكويت ضم أكثر من (34) دولة كان 90 % منها أمريكيون شكلت الدول العربية قسما كبير منها خاصة سوريا حليفة إيران في ذلك الوقت وقد يعود سبب هذا النجاح إلى التبدلات الجذرية في تركيبة النظام العالمي، أو بالأحرى نهاية النظام الثنائي، وعلى الرغم من عدم موافقة الرئيس بوش على وضع القوات العسكرية الأميركية تحت قيادة غير عسكرية فهو قد استند إلى شرعية من الأمم المتحدة لقيادة حرب تحرير الكويت، بكلام آخر قد يمكن القول أن هذه الحرب هي الفرصة الوحيدة التي تعاون فيها المجتمع الدولي من أجل الحفاظ على الأمن والسلام العالميين وإذا كانت القوى الكبرى لم تتعاون بالشكل المطلوب وبناء لشرعية الأمم المتحدة كما كان يجب خلال الحرب الباردة، فإنه يمكن لنا أن نعتبر أن حرب تحرير الكويت هي الحرب الأكثر تعددية في تاريخ الأنظمة الدولية⁽⁴¹⁾.

والفريد ذكره أنها أتت عند نهاية الحرب الباردة وليس في بدايتها كما كان مفروضاً، وهي ستؤسس لاحقاً لسيطرة ونفوذ القوة الأميركية، وهو ما حصل فعلاً في المنطقة، لكن الفيلسوف في تقييمه للحرب الثانية، حرب الولايات المتحدة الأمريكية على العراق في مارس 2003.

يرى أن الولايات المتحدة الأمريكية تحركها الغطرسة واللامسؤولية المتنامية للقوى الكبرى الوحيدة في العالم وأن عقيدتها في الحرب الاستباقية تقع في تناقض بديهي مع أسس ومبادئ القانون العالمي أو الدولي .

ومع أن الفيلسوف والزر يقر بأن هذه الحرب غير عادلة، وأنه كان من الممكن تفاديها، وأن أهدافها يمكن تحقيقها بوسائل أخرى، ومع ذلك نجده يرى أنه على الولايات المتحدة أن تحقق النصر فيها. أو وفقاً لعبارته (إنها حرب غير عادلة، ولكن يجب الانتصار فيها)⁽⁴²⁾.

وكأن الفيلسوف يعترف بأن موقفه غير متسق وأنه غير مريح وفقاً لعبارته، لأن ما قام به "صدام حسين" غير عادل أيضاً وأنه لا يمثل حالة الدفاع عن النفس، لأن قرار الدفاع عن النفس يجب أن يكون قراراً جماعياً، وهو غير ذلك في حالة العراق لأنه متعلق بقرار شخصي واحد متشبت بالسلطة.

وفي رد للفيلسوف حول ردود الفعل الدولية وحجم الأدلة والاحتجاج الذي أثاره قرار حرب أمريكا على العراق، يرى أن الجميع أخطأ الهدف، لأنهم جميعاً يرسلون رسالة دعم للدكتاتور في حين يتعين على كل شخص نزيه أن يمتنع عن فعل ذلك⁽⁴³⁾.

لكن السؤال الذي يطرح نفسه في هذه الحالة هو: لماذا لا تعلن الولايات المتحدة الأمريكية الحرب على جميع الأنظمة الدكتاتورية؟

هنا يأتي جواب الفيلسوف والزر ووفقاً لطريقته التي يصفها بالواقعية التي تفرض عدم التعميم، وأنه من الضروري دراسة كل حالة على إنفراد، مثلما أنه يجب مناقشة كل حرب على أنفراد⁽⁴⁴⁾.

تعقيب:

يعد ميخائيل والزر من كبار منظري العلاقات الدولية الذين كتبوا بعمق وأسهاب حول نظرية الحرب العادلة، ومقاربات والزر تدرج في تصنيفات المدرسة المعيارية في نظريات العلاقات الدولية والتي تولى إهتماماً للقيم والأخلاق لاتوليه أياها بقية المدارس والنظريات وبخاصة تلك المقادة بمنطقى المصلحة القومية والواقعية الصارمة، بحسب هذه الأخيرة لا تقوم السياسة بين الدول على منطق الأخلاق بل انتزاع المصلحة رغم إرادة الطرف الآخر.

تهدف نظرية الحرب العادلة حسب ماجاء به والزر إلى الحد من إستعمال العنف في المجال السياسى، وتقترح معايير تحتكم إليها الجماعات والدول عندما تكون في حالة نزاع وأزمات، وذلك لأنها ترى أن جميع الحروب ليست متساوية ومتماهية، وإنما يجب أن تكون لها معايير نستطيع بها أن نميز بين مختلف الحروب، على أن يكون منطلق وغاية هذه المعايير هو تحقيق العدل، وبالتالي فإن نظرية أو فلسفة الحرب العادلة تجمع بين الطرح الأخلاقى والسياسى لموضوع الحرب، وذلك ليس بهدف توسيع الحرب وتصويغها، وإنما من أجل الحد منها إن هدفها هو أن تجعل من الحرب فعلاً أخلاقياً مقبولاً، ولذلك فإن الحرب لكى تكون عادلة يجب أن تكون غايتها عادلة ووسائلها عادلة.

لكن مشكلة الحرب العادلة وهى مشكلة جميع النظريات تبدأ عندما يتم الشروع في عملية التطبيق، وذلك أن الانتقال من النظر إلى الواقع أو من الفعل إلى التطبيق هو الذى يطرح المشكلات ومن هذه المشكلات المباشرة لنظرية الحرب العادلة الإختلاف في فهم مقاصد النظرية وليس أدل على ذلك من أن عدداً من المثقفين الأمريكيين الذين وقفوا على صحة النظرية العادلة

للحرب قد أعلنوا تراجعهم عنها بعد ما تبين لهم أن الحرب على الأرهاب قد انتقلت من الحرب العادلة إلى الحرب الاستباقية وبذلك رفع الغطاء الأخلاقي عن الحرب الأمريكية على العراق. إن وجود نظريات أخرى ومضادة لنظرية الحرب العادلة ينتج عنه عدم صحة هذه النظرية ومن ثمة رفضها كلية من منطلق أن كل حرب شراً بالضرورة ولا وجود لصحة العدالة في الحرب كوجودها في الأخلاق فهناك النظرية الواقعية التي دعا إليها بعض الفلاسفة والمؤرخين أمثال " تيوسديد (460-399ق.م) " في بلاد اليونان وميكافيللي (1469-1527) في العصر النهضوي.

ذلك أن هذه النظرية تتميز بكونها تتكرر إمكان إجراء تقييم وتسويغ أخلاقي للحرب، وترى أن الحرب ليست موضوعاً للتقييم الأخلاقي.

كذلك نظرية السلام أو نظرية النزعة السلمية تعترض على نظرية الحرب العادلة من خلال رؤيتها من أن جميع الحروب غير عادلة ولأسباب منها أن السلطات في غالبية الدول غير شرعية والشروط التي تضمن الحرب العادلة لا يمكن أن تتوافر في الممارسة أو أن تتحقق في الممارسة.

إن الحديث عن الحرب العادلة قد يكون ممكناً عندما تحدث بين الدول لكن هنالك إشكال من الحروب تجعل تحقيق العدل أمراً غاية في الصعوبة، ومن هذه الحروب، الحروب الشعبية حيث يصعب على الخصم أن يميز بين الجنود وبين بقية السكان.

ذلك لأن نظرية الحرب العادلة تقوم على مبدأ أساسي هو الحقيقة الأخلاقية للحرب، تلك الحقيقة القائمة على أن الحرب حقل خاص ومجال فعال لتطبيق الأحكام الأخلاقية وعلى أنه يمكن النظر للحرب على أنها عملية لا يمكن وصفها أو تأويلها فقط بمفاهيم الإستراتيجية، ولكن

كذلك بمفاهيم الأخلاق وعلى رأسها مفهوم العدل، بما أن القرارات الأخلاقية حاضرة دوماً في العملية الحربية سواء في إعلان الحرب أوفى سير العمليات الحربية. عليه نستطيع القول بأن الإضافة الحقيقية التي قدمها والزر للنظرية التي قدمها لدراسات علم الحرب تنطلق من ان الحرب يجب ان تكون مقيدة إلى الحد الأدنى، وأن تتخطى الأطراف المتحاربة في الزى العسكرى، وهى بين الجيوش وليس الشعوب، ومعظم الحروب إن لم يكن كلها ليس هناك اسباب حقيقية ومقنعة لخوضها، فكل طرف متحارب يزعم أن حربه عادلة. فى الطبعة الثانية أضاف والزر تحليلاً مطولاً عن حرب الخليج الأولى 1991 واداء قوات التحالف ضد العراق، وانتقد توسع نطاق قتل الجنود العراقيين بخاصة الذين فقدوا أسلحتهم أو تاهوا في الصحراء بعد ما تبنت هزيمة جيش صدام حسين، وأخيراً استهداف قوافلهم التي فقدت القدرة العسكرية وحتى البوصلة الجغرافية في الصحراء وقصفهم بالطائرات جرائم تخطت حدود احتياجات الحرب.

أما عن موقفي من حرب الخليج الاولي والثانية هل هي عادلة ام لا؟ فأقول من حيث السير العادل للحرب فأن الطريقة التي تمت بها الحرب علي الارهاب أضرت بشكل كبير بالقانون الدولي والقانون الانساني وبحقوق الانسان، لذا تظهر ضرورة مراجعة كل القوانين التي اعتمدت تحت بند محاربة الارهاب للحد من الانحرافات التي شهده العالم وفداحة الاضرار المتراكمة بسبب اتخاذ اجراءات صارمة وغير محترمة للقانون في مجال محاربة الارهاب من قبل عدد كبير من دول العالم وعلى رأسهم الولايات المتحدة الأمريكية .

هوامش البحث:

- (1) نصار عبد الله، مدخل إلى نظرية الحرب العادلة وغير العادلة، عين للدراسات، 1996 ص5.
 - (2) قاموس الفكر السياسي، ج1، مجموعة من المختصين، ت، أنطوان حمصي، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1994، ص 237 .
 - (3) نصار عبد الله، مدخل الي نظرية الحرب العادلة وغير العادلة، مرجع سابق، ص 6، 7 .
 - (4) Charles Guthrie, Michael Quinlan, Just War the Just War .Tradition; Ethics in Modern Warfare, New York, 2007, p.35.
 - (5) قاموس الفكر السياسي، ج1، مرجع سابق، ص 242.
 - (6) أشرف حافظ، معالم الفكر الأوروي في العصر الوسيط، ط1، دار طيبة، القاهرة، 2004، ص 161
 - (7) قاموس الفكر السياسي، ج1، مرجع سابق، ص 238.
 - (8) جون رولز، قانون الشعوب و "عوده إلى فكرة العقل العام"، ت، محمد خليل، ط1، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2007، ص 134.
 - (9) Just war theory, by Alex Moseley in the encyclopedia of philosophy, New York, 1950, p 60.
 - (10) Charles Guthrie, Michael Quinlan, Just War the Just War .op, cit, p 40.
 - (11) كانط، مشروع للسلام الدائم، ت، عثمان أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2006، ص، 41
- * يورغن هيبيرماس (1929) فيلسوف وسيوسولوجي الماني ممثل الجيل الثالث من مدرسة فرانكفورت، من مؤلفاته الأساسية: المعرفة والمصلحة، والتكنيك والعلم كايديولوجيا. المعجم الفلسفي المختصر، توفيق سلوم، دار التقدم، الاتحاد السوفيتي، 1986، ص 587.

(12) J. Hapermas. La paix perpetuelle. Le bicentenaire dune idee Kant, cerp, Paris. P, 26.

* ميخائيل والزر (1935 -)

** جون رولز (1921 - 2002) فيلسوف أميركي نشر عام 1971 كتابه " نظرية في العدالة " حيث بدأ هذا المؤلف أكثر تأثيراً في الفلسفة السياسية الانجلو - أمريكية في السنوات الأخيرة. قاموس الفكر السياسي ج2، مرجع سابق، ص 324.

(13) Michael Walzar , De la politgue a la theorie , la voie de l'engagement, (Entratien) In le banquet , no,12 , 1998 , p.5 .

(14) Michael Walzer, War just and unjust wars, Basic Books in, New York, 2006, p.42.

(15) Ibid. p. 36.

(16) M, walzar, War Just and Just, op.cit, p 36.

(17) M, walzar, arguing about War, New York, Haven Yale Universality Press, 2004, p50.

(18) M, walzar, just and unjust wars, op.cit, p.34.

(19) Walzer, War just and unjust, op, cit, p, 120.

(20) Ibid, p, 313.

* هذه العبارة منسوبة إلى الزعيم البريطاني ونستون تشرشل.

(21) Walzar, War just and unjust, op, cit. p. 398.

(22) حسنين المحمدى بوادى، غزو العراق بين القانون الدولى والسياسة الدولية، منشأة المعارف، الإسكندرية، 2005، ص 19.

(23) نفسه، ص 18.

(24) Walzer, War just and unjust, op, cit, p. 355.

(25). Walzer, War just and unjust, op, cit, p.20

(26) Ibid, p, 20

(27) جون رولز، قانون الشعوب و (عوده إلى فكرة العقل العام) ت، محمد خليل، مرجع سابق، ص 135.

(28) Segment Freud, malaise dans la civilization, E d. PVF. Paris, 1975. P, 50.

(29) Cyrille B egorre Bret, l'idee de guerre just an l'epreuve des faits. In, le banquet. No, 22, 2005, p.5.

(30) Michael Walzer , Morel Maximale , morel minimale , trad Camille fort , Ed , Bay and , paris , 2004 , p,19 .

(31) Jorgen Habermas , John Rawls , Debat Sur La Justice POLITICAL ,ED ,CERF, Pares ,1997, P 65 .

(32) Justine Iacroy, Michael Walzer, le plusalisme ET l'universel, Ed, Michalon, Paris, 2001, p. 46.

(33) Charles Guthrie, Michael Quinlan, just war, the just war tradition: Ethies in modern warfare, 2007 p.50.

(34) Wazler, War just and unjust. Op, cit, p.10.

* اتجه البعض من فقهاء القانون الدولي المتأثرين بأفكار مدرسة القانون الطبيعي، ومنذ نهاية القرن السادس عشر، إلى التمييز بين ما أسموه بالحرب العادلة just war وما أسموه بالحرب غير العادلة unjust war مشجعين الحروب غير العادلة ومدافعين عن حق الدولة في شن الحرب متى كانت عادلة . انظر محمد سامي عبد الحميد، قانون الحرب، ط2، المطبوعات الجامعية، الاسكندرية، 2007، ص 218 هامش رقم 2 .

(35) حسنين المحمدى بوادى، مرجع سابق، ص 18 .

(36) Michael Walzar, War just and unjust, op, cit, p. 15.

(37) Ibid, p.17.

(38) حسنين المحمدى بوادى، مرجع سابق، ص 11.

(39) مجله السياسة الدولية، العدد 104، ابريل، 1991، " تحرير الكويت ورياح التغيير في المجتمع الدولى"، ص 15.

(40) المهدي المنجرة، الحرب الحضارية الاولى، ط1، مكتبة الشروق، القاهرة، 1995، ص63، 64

(41) Andrew Bacevich , the New American militarism, how American's are seduced by war, oxford university press, 2005, p, 35.

(42) Michael Walzer, War Just unjust, 0 p cit, p. 28.

(43) I bid. p. 29.

(44) Michael Walzer, War Just unjust, o p cit, p30.